المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثالث والاربعين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩١٣ — الموافق ٢٦ رجب سنة ١٣٣١

دولة الروس

بطرس الاكبر

كان بطرس الاكبر في حداثته مغرماً بالآلات الحربية كالسيوف والبنادق فكان يتمرّن على استعمالها دواماً . وتعلّم القراءة والكتابة وطالع تاريخ ابيه وتاريخ القيصر ايفان الرهيب وكانا مكتوبين على اسلوب يظهر به ذانك القيصران ابسل الملوك وانكمهم بالاعداء واصبرهم على الشدائد وارأفهم بالرعايا . وكرّر قراءة التاريخين حتى رسخت حوادثهما في ذهنه وشبّ مغرماً بطلب المعالي والسعي الى ما يرفع شأنهُ وشأن بلادهِ . وتعلّم ايضاً اللاتينية والالمانية والهولندية وطالع كتباً كثيرة . وكان يشكو بعد ذلك من انهُ لم يدرس درساً قانونياً . ولعلّ عدم تقيده بالدروس القانونية هو الذي حرّر ذهنهُ وجعلهُ يعتمد على نفسهِ

وعاشر كل طبقات الناس ولاسيما اهل الطبقة السمحاء التي لا تتعصّب للقديم وتعرّف بالذين قصدوا روسيا من سويسرا وانكلترا والمانيا فحوّلوا نظرهُ الى حسنات التمدن الاوربي . والتفّ عليهِ كثيرون من اهل القصوف الذين يميلون الى الازياء الاوربية فنظم منهم جيشاً صغيراً على نمط الجيوش الاوربية . وكان هذا الجيش النواة التي تألف منها الجيش الروسي المنظم بعد ذلك . وتعلّم مبادئ الهندسة وانشاء الحصون وانشأ حصوناً صغيرة وكان يحميها ويهاجمها بجنودهِ وكثيراً ما كانت تنشب بينهم حروب كالحروب الحقيقية فيجرح فيها بعضهم او يقتلون وكان يصيبهُ ما يصيب جنودهُ لانهُ لم يكن اقل تعرّضاً للمخاطر منهم

وهذه الاعمال وامثالها علّقت قلوب الناس بهِ حتى لما ارادت اخته ان تغتالهُ التفّ الجند حولهُ ونصروهُ عليها وقبضوا على اعوانها وقتلوهم شر قتلة بعد ان اذاقوهم مرّ العذاب . وكان الروس في تعذيب بعضهم بعضاً وحوشاً كاسرة بل شرّاً من الوحوش فيمثلون مفاصل

من يريدون تعذيبهُ ويقطعون يديهِ ورجليهِ ثم يقطعون رأسهُ او يسلخون جلدهُ وهو حي او يحرقونهُ او يحرقونهُ وهلمَّ جرًّا من انواع العذاب

ورأى ذات يوم قاربًا من القوارب التي جلبها عمهُ من انكلترا فاعجب بهِ وقال لهُ تمرمن (وهو رجل المانيٌ من حاشيتهِ) ان هذا القارب انكليزي واذا وضع لهُ قلع سار مع الريح وضدها على حدٍّ سوى . فجعل يبحث عن رجل يعلمهُ كيف يقلع بهِ فاتاهُ تمرمن برجل هولندي صنع لهُ قاربًا مثلهُ وعلمهُ كيف يستعملهُ ولكن بلاد الروس لم تكن تناخم البحر حينئذٍ الاَّ من الجهة الشمالية فقام سنة ١٦٩٣ باكثر من مئة رجل من حاشيتهِ وقصد مدينة ارخنجل وهي فرضة بحرية على البحر الابيض المتفرع من الاوقيانوس الشمالي حتى اذا بلغها خالط التجار الذين رآهم فيها وآكلهم وكان الفصل فصل الصيف حينما يذوب الجليد من ذلك البحر وتقصدهُ سفن التجار . وانشأ هناك حوضًا لبناء السفن وبنى فيهِ اول سفينة روسية بنيت في بلاد الروس . وركب ذات يوم سفينة وسار فيها في عرض البحر خمسة ايام . وعاد الى ارخنجل في الصيف التالي وركب سفينة هولندية ليعبر بها البحر الابيض الى دير صلوفتسكي المقابل لارخنجل من الجهة الغربية وكان البحر هائجًا جدًّا فاشرفت السفينة على الغرق ولما قطع الامل من النجاة اعترف وتناول استعدادًا للموت . كل ذلك والدفة في يدهِ لا يتركها حتى اذا يئس الربان من سفينتهِ دفعهُ جانبًا واستلم الدفة منهُ وهو يقول لهُ هذا شغلي لا شغلك . وجرى بالسفينة الى مرفإ امين فاعتنقهُ القيصر حينئذٍ وخلع عليهِ ثيابهُ وقطع لهُ معاشًا مدى حياتهِ لكنهُ لم يعتبر بذلك بل استلم الدفة وهو راجع واوصل السفينة سالمة

الاَّ ان البحر الابيض الشمالي يجمد في الشتاء كما تقدم فلا سبيل لروسيا لتصل باوربا بحرًا الاَّ اذا وصلت الى البلطيك او الى البحر الاسود . والاول في يد اعالي اسوج والثاني في يد الاتراك . فرأى ان الاستيلاء على البحر الاسود اولى بهِ لاسيما وانهُ يوصل الى القسطنطينية وهي غرض قياصرة الروس الذين يدَّعون انهم خلفاء قياصرة الروم . فعزم ان يستولي على مدينة ازوف لان بحر ازوف جزء من البحر الاسود وكان القزاق قد استولوا عليها في عهد جدهِ القيصر ميخائيل كما تقدم ثم ردها جدهُ الى الاتراك . فجمع مئة الف مقاتل واقام عليهم ثلاثة من القواد وذهب هو مع الجيش كجندي بسيط في الفرقة التي نظمها من نخبة الرجال وكان عددها قد بلغ ١٢ الفًا واكثرهم من الاجانب . لكنهُ لم يفلح في فتح مدينة ازوف بل ارتدَّ عنها خائبًا لانهُ لم يكن عندهُ سفن لينازلها بحرًا او ليقطع عنها المدد . فعاد الى موسكو واستدعى الضباط والمهندسين من ممالك اوربا من هولندا وبروسيا والبندقية وجعل يقطع

الاشجار و بني السفن فبنى ٢٢ سفينة كبيرة و ١٢٠٠ سفينة صغيرة عدا الارماث استخدم ٢٦ الفاً في بنائها . ولما تم بناء هذه السفن نزل بها في نهر الدون الواصل الى ازوف . وكتب من هناك الى اخيه نتاليا يقول اني طاعة لامرك لا اذهب للقاء القنابل ولكنها هي تأتي لقائي فمريها ان استطعت بالعدول عن ذلك . وحصر مدينة ازوف براً وبحراً وردم الخندق الذي يحيط باسوارها من جهة البر واقل التراب فيه حتى علا فوق الاسوار وجعل ينهال على المدينة . وما زال يشدد الحصار عليها و يتازلها براً وبحراً الى ان فتحها عنوة وكان لفتحها دوي في كل اوربا

واراد ان يتوسل بفوزه هذا الى انشاء اسطول بحري عظيم فقرر مجلسهُ ان يرسل الى مدينة ازوف ثلاثة آلاف بيت تقيم فيها واربع مئة من القوزق وحامية من حامية موسكو وحصّن المدينة بالابراج و بنى على الضفة المقابلة لها من نهر الدون قلعة منيعة وضرب على الاديرة ورؤساء الدين ضريبة حسب عدد ما عندهم من المرابعين حتى يبني كل ثمانية آلاف منهم سفينة حربية . والزم البطريرك ادريان و بعض الامراء الاغنياء ان يبنوا عشرين فرقاطة كبيرة في كلٍّ منها خمسون مدفعاً . وهو نفسهُ بنى تسع سفن كبيرة على نفقته الخاصة تحمل كلٌّ منها ستين مدفعاً . و بنى التجار سبع سفن في كلٍّ منها ١٤ او ١٨ مدفعاً واربع حرّاقات فيها ثمانية مدافع . وارسل خمسين شاباً من اولاد الاشراف الى البندقية والكاترا وهولندا ليتعلموا سلك البحر و بناء السفن . ولكنهُ رأى ان كل جهدهِ لا يأتي بالفائدة المطلوبة ما لم يذهب هو بنفسهِ في مقدمة الذاهبين الى مدن اوربا لتعلُّم الصنائع التي تحتاج اليها بلادهُ . فعزم على الرحلة اليها والتمام في مصانعها وقبل ان يتيسّر لهُ ذلك كثرت الشكوى في بلادهِ من جراء هذا التغيير الفجائي فشكا الجنود من انهُ يفضل الاجانب عليهم ويجبرهم على التدرُّب والتمرن في الفنون الحربية . وشكا الاشراف من انهُ اخذ اولادهم وارسلهم الى ممالك الهراطقة ليتعلموا صناعتين زريتين صناعة بناء السفن وصناعة سبك المدافع . وشكا الكهنة والملاَّك من انهُ فرض عليهم ان يبنوا ٦٤ سفينة حربية في ثلاث سنوات . فتواطأ الشاكون على خلعهِ وارجاع الحكومة الى ما كانت عليهِ وكان محور هذه المكيدة اختهُ الملكة صوفيا لكي تخرج من الدير وتسترجع الملك

وحدث ذات يوم انهُ كان في بيت لفورت في جمع حافل من الرجال والنساء (في ٢ فبراير سنة ١٦٩٧) وكانوا عازمين ان يجلسوا للعشاء فاتى واحد واسرَّ في اذنهِ شيئاً فنهض واستأذن الحضور في الانصراف وركب مزلقة وسار بها الى ان وصل الى بيت الكسي سكوفتين فوجد فيهِ جماعة كبيرة من رؤساء المكيدة يجلس معهم للعشاء كأنهُ لا يعلم شيئاً مما دبروهُ

لهُ وهو ان يحرقوا بيت لفورت الذي كان فيهِ ويقتلوهُ وهو مشغول باطفائهِ . وبقي معهم الى ان جاءهُ رئيس حرسهِ ومعهُ عدد كاف من الجنود فاحاطوا بالمتآمرين وكبلوهم بالحديد . وعاد هو من فورهِ الى بيت لفورت وجعل يباسط الحضور ويمازحهم كأنهُ لم يحدث شيء مما حدث . وعذَّب الذين قبض عليهم عذاباً شديداً فاعترفوا بجريمتهم ودلوا على شركائهم فيها والقوا اللوم كلهُ على الاجانب الذين في موسكو لكي يتخلصوا منهم لكنهُ ادرك غرضهم من ذلك وامر بان تقطع اوصال رؤَسائهم ثم قطعت رؤوسهم ووزعت في انحاء المدينة حيث يراها كل احد عبرةً لغيرهم

ولما اطمأن بالهُ من قبيل هذه المؤامرة قام في الشهر التالي مع الاميرال لفورت والجنرال غولوفن والجنرال ڤوزنتزوف ومئتين وسبعين من اولاد الاشراف والجنود والتجار والبراجمة وتمموا انفسهم سفراء القيصر وسار هو معهم متخفياً باسم بطرس ميخائلوف كأنهُ واحد من عامتهم لكن كان اذا اقتضت الحال مذاكرة سياسية عاد قيصر الروس بكل جبروته . ولما وصل هؤلاء السفراء الى مدينة كونيجسبرج من مدن بروسيا دخلوها بموكب حافل جدًّا وهم بافخر حللهم واسلحتهم وكان الكولونل ستزنفلد البروسياني هناك فاعطى القيصر شهادة رسمية بانهُ استاذ في صناعة اطلاق المدافع . وقبول السفراء بمزيد الاحتفاء في قصور كرلند وهنوفر وبردنبرج . واضافتهم الاميرة صوفيا ارملة صاحب هنوفر في وابنتها صوفيا شارلوط التي صارت بعدئذٍ ملكة بروسيا . وكتبت عنهُ الاميرة صوفيا حينئذٍ تقول ان بعض اخلاقهِ حسن جدًّا وبعضها قبيح فهو مثل سائر اهل بلادهِ ولو هُذِّب التهذيب الكافي لكان من الرجال الكمَّل لان فيهِ كثيراً من الصفات الحسنة فوق ما فيهِ من الذكاء الطبيعي

وترك رحالهُ هناك واسرع الى اترخت ومنها الى امستردام فساندام ونزل في بيت حدَّاد من العمال الذين عندهُ وخلع ثيابهُ ولبس ثياب نجاري المراكب وجعل يعمل معهم والناس في بدهِ . وزار صناع الساكنين والحبال وساعدهم في عملهم ودخل معملاً من معامل الورق وعمل الورق فيهِ . لكن اهالي ساندام عرفوهُ فاشترى مركباً منهم وعاد الى امستردام وقضى الايام فيها وهو يبحث في كل شيء ويفتش عن كل شيء حتى اجهد الناس بحثهِ وتجربتهِ فتفحَّص اهم الجوامع التشريحية وحضر اصعب العمليات الجراحية وزار السفن التي كانت خارجة لاصطياد الحيتان وبحث عن كل ما يتعلَّق بالصيد ودرس كل الصناعات والعقائد الدينية واستخدم مئات من الصناع والعمال والضباط والمهندسين والجراحين . واشترى كثيراً من امثلة السفن وكتباً كثيرة في القوانين والمعاهدات ودخل بيوت السكان وصادق

اهاليها ودخل مخازنهم وتفحص ما فيها ولقي منهم كل مودة واكرام . ثم جاءت الاخبار الى هولندا ان السفراء آتون اليها والقيصر معهم فقامت البلاد للقائهم واستقبلهم رجال الدولة باحتفال باهر على حدود البلاد واعدوا لهم المركبات الفاخرة فركب لفورت ومنشيكوف في المركبة الاولى مركبة الشرف واما القيصر فركب في آخر مركبة مع بعض اعوانه غير حافل بما نوفي به لانهُ كان يسعى الى غرض آخر . وكتب حينئذٍ الى البطريرك ادريان يقول « انما اتينا الى هنا لنتعلم صناعة بناء السفن وركوب البحر حتى اذا تعلمناها عدنا الى بلادنا وحررنا ابناء ديننا وهذا ما لا انفك عن طلبهِ ما دمتُ حيًّا » . فاقام في استردام كاحد العمال ولم يدع احداً يخدمهُ بل كان يشعل نارهُ ويطبخ طعامهُ بيدهِ . ومتى لبس ثياب العمال صار اسمهُ النجار بطرس او المعلم بطرس فلا يجيب من ينادهِ بغير اسم من هذين الاسمين واذا قال لهُ احد جلالتكم اعرض عنهُ متغافلاً . واقام مع رجالهِ شهرين في استردام وانتقلوا منها الى الهاغ فتفحص كل شيء رآهُ في الطريق مما لم يرهُ قبلاً كالمطاحن والمعادي وآلات الري . وأُعدَّت لهُ غرفة فاخرة لينام فيها في الهاغ فرفض النوم فيها ونام اكثر الليل حتى اذا غلبهُ النعاس رأى خادماً من خدمهِ نائماً على جلد دب فايقظهُ ونام مكانهُ . وقابل الملك وليم الثالث ووزراءهُ مراراً وكان يلبس وقت مقابلتهم ثياباً كثياب الاشراف

وذهب من الهاغ الى مدينة ليدن ودرس علم الميكروسكوب على العلامة الطبيعي ليونهوك الشهير . ثم عاد الى استردام وساعد في بناء سفينة كانت المدينة تبنيها لتهديها اليهِ . وسافرت هذه السفينة الى اركنجل في السنة التالية موسوقة بما اشتراهُ من هناك . لكنهُ رأى انهُ يستحيل عليهِ ان يتعلَّم صناعة بناء السفن في استردام لان ليس للصنَّاع فيها قاعدة يجرون عليها واخبرهُ احد الربانيين ان اهالي انكلترا امهر من اهالي هولندا في بناء السفن ولهم قواعد ومبادئ يجرون عليها فذهب اليها مع منشيكوف وخمسة عشر من اتباعهِ في اسطول مؤلف من ثلاث سفن حربية ويخت وكان ملك هولندا قد وضع هذا الاسطول تحت امرهِ . واقام ثلاثة اشهر في مدينة لندن والمدن المجاورة لها واجرى الانكليز مثال واقعة بحرية امامهُ فسرَّ بها جدًّا واخذ من انكلترا كثيرين من الصناع والبنائين والمدفعيين والفلكيين والرياضيين وعاد الى هولندا ولما غادرها اهدى اليهِ ملكها فرقاطة فاخرة فيها ٢٤ مدفعاً اعدها لهُ خاصَّة

وغادر هولندا في شهر يونيو ومرَّ في طريقهِ على ليبسك الى ان وصل الى ڤينا فدرس فيها العلوم الحربية وكان عازماً ان يذهب الى البندقية ولكن جاءتهُ الاخبار ان فتنة فاشت في بلادهِ فكرَّ اليها راجعاً

ستأتي البقية